النشاط الاجتماعى
لوزارة الشؤون الاجتماعية
مشروع الزكاة — مكاتب اجتماعية فى الأقاليم — مكافحة الأمية
عن طريق المراكز الإجتماعية

(١)

تكره المذاهب الاجتماعية فكرة الاحسان المباشر من يد المحسن إلى يد المحتاج ، وترى فيها غضاضة و إيذاء للكرامة فى نفس المحسن إليه ، كما ترى فيها إيقاظا للباهاة والتعالى فى نفس المحسن ، ولذلك أبطلت الأمم الراقية التسول . لهذا ولغرض آخر هو إزالة هـذه الوصمة عن جبين الأمه لجأت إلى معاونة الطبقات المحتاجة إلى طريقين : الأول فرض الضرائب التى تكفل تحقيق العناية بهـذه الطبقات ، والثانى التبرعات للجمعيات الخيرية ومنشآت الخدمة العامة ، حتى لا تصل الصدقة من يد المحسن إلى يد المحسن إليه مباشرة واحتفاظا بالكرامة الإنسانية للجميع .

تم هذا فى الأيام الأخيرة حينما ارتقى الذوق الإنسانى ، ونضج الشعور بالواجب. ويكاد القرن العشرون يكون مطلع هذا العهد الجديد فى تنظيم الإحسان فى الأمم الغربية .

فإذا وجهنا جهودنا شطر الشرق نجد أن الإسلام قبل ثلاثة عشر قرنا قد فطن إلى هذا المعنى ورمى إلى هذه الغاية بجعل الزكاة فريضة من فرائض الإسلام الخمس ، تجبى إلى بيت المـال فينفق منها على الطبقات المحتاجة ، وجعلها حقا لهذه الطبقات لا تفضلا من أصحاب الأموال . وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم "وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم" .

وقد تشدد الإسلام فى هذا الركن من أركانه على شدة نفور العرب منه ، حتى إن ردة المرتدين بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم قامت على التنصل من أداء الزكاة ، فلم يرض بذلك خليفه أبو بكر رضى الله عنه ، وحاربهم عليها مع حروجة موقفه بل موقف الإسلام كله ، ولم يرض بالتهاون فيها ولو فترة من الزمان .

واليوم تجد وزارة الشؤون الاجتماعية يدها مغلولة عن إنقاذ الطبقات الفقيرة لأنها لا تجد المـال ، فتوفق توفيقا كبيرا حين تلجأ إلى هـذه الفريضة التى شرعت منذ ثلاثة عشر قرنا لمثل هذه الأسباب ، والتى تجعل التعاون الاجتماعى تكليفا لا تطوعا .

فليس من حق أحد أن يضع العراقيل فى وجه هذه الضريبة الجديدة بأبحاث أفلاطونية. إنها ضريبة واجبة أخذت بمثلها الأمم المتحضرة حينما أرادت التخلص من الاحسان المباشر وأثره الذميم ، فمن توفيق الله أن نجد لهذه الضريبة أساسا من الدين على وجه من الوجوه .

واذا قلنا الدين ، فاسنا نعنى الدين الاسلامى وحده ، فالديانة الموسوية تقرر العشر لمثل هذه الفريضة .

والديانة المسيحية تجعل من المستحيل على الأغنياء أن يدخلوا الجنة حتى يدخل الجمل من سم الخياط وتدعوهم للتخلص التام من الأموال ، فالاسلام حين يكتفى بربع العشر انما ييسر على الناس ويحقق الغرض المقصود من الصدقات .

وكثيرون أولئك الذين يحلو لهم أن يتمسكوا بظاهر بعض النصوص ، وأن يقيموا العراقيل الفلسفية ، فى وجه كل عمل نافع ، ولا سيما اذا كان يكلفهم بعض التضحيات .

فيجب على هؤلاء أن ينظروا الى المستوى الاجتماعى المخزى الذى تعيش فيه ملايين كثيرة ، والى الغنى الفاحش الذى يتمتع به أفراد معدودون ، وأن يؤمنوا بأن هذا الوضع غير قابل للبقاء .

فوزارة الشؤون الاجتماعية انما تقدم لهم خدمة جليلة حين تكلفهم هذا التكليف المتواضع فى سبيل تغيير هذا الوضع الشاذ تغييرا ضئيلا . وحين ترضى الساخطين وترد اليهم طمأنينتهم إلى أنها تقوم لهم بما فرضته لهم الأديان من الحقوق فى أموال الأغنياء ، وبذلك تصد مطامعهم الأخرى التى قد تثيرها التيارات العالمية .

ان أغبى الأغبياء وأحمق الحمق هم أولئك الذين لا يريدون أن يستغلوا فرصة ادخال الطمأنينة الى قلوب الملايين من المحتاجين الذين يرون مظاهر الترف أمامهم وهم منها محرومون ، بهذا القدر الضئيل من التكاليف التى تنوبها وزارة الشؤون الاجتماعية .

وانهم حين يقيمون العراقيل فى سبيلها بالأبحاث الأفلاطونية التى تستر الأثرة والشح ، انما يوقظون فى نفوس هذه الملايين عاطفة جارفة يخشى منها على جميع الأوضاع .

وانه لتوفيق — كما قلنا — أن تنفذ هذه الضريبة باسم الدين فيرضى عنها الدافعون ، ويقنع بها المنتفعون ، ويحس هؤلاء فى قرارة نفوسهم أنهم قد أخذوا ما كتب الله لهم فلا ضرورة للسخط ولا لطلب المزيد ، والدين دائما موضع الاطمئنان والايمان ومكمن الرضا والاقتناع .

وذلك ما يجعل لجباية هذه الضريبة باسم فريضة الزكاة معنى ومغزى أفضل من جبايتها باسم الضرائب المدنية كما يشير بذلك بعض الباحثين .

بقى أن نقول : إن غلة هـذه الضريبة ينبغى ألا تذهب احسانا وقتيا مباشرا — كما تصنع وزارة الأوقاف فيما تسميه الخيرات — فليس أذهب من هذه الخيرات بالصورة التى تنفق عليها ، انما يجب أن تكون مورد رزق دائم أو شبه دائم للمحتاجين .

وقد وزعت وزارة التجارة والصناعة فى تركيا أنوالا يدوية على بعض الأسر الفقيرة مقابل كمية صغيرة من الغزل فى نهاية العام .

وقامت وزارة الأوقاف هناك من أموال الخيرات بإقامة مصانع للزيت يشتغل فيها المحتاجون .

وفى مصر قامت المراكز الاجتماعية بتوزيع دود القز على بعض البيوت ، وبتوزيع بعض الحكاكيت من نوع ممتاز على بعضها الآخر بمقابل تأخذه فى نهاية العام ، والباقى يصلح أن يكون مورد رزق دائم للأسرة .

وما من شك أن كل هـذا حسن ، وأنه يمكن التوسع بتوزيع العجول الصغيرة بدل الحكاكيت أو بتوزيع الغنم والماعز فى مقابل نتاجها الأول مثلا . أو بأية وسيلة أخرى يكون من ورائها ضمان مورد رزق مستمر لا اسعاف وقتى لا أثر له .

(٢)

وبجانب مشروع الزكاة — وهذا موضعه من التوفيق — تهم الوزارة بمشروع آخر لجمع الصدقات ، يقوم على نفس الفكرة ، وهى الغاء الاحسان المباشر ، الذى يطغى الغنى ويؤذى الفقير ، والذى يجعل الاحسان فوضى يناله من لا يستحقه تارة ، ويقصر عن انقاذ المستحق تارة ، ذلك هو مشروع المكاتب الاجتماعية فى الأقاليم .

وليس هذا مشروعا مرتجلا ، فقد جرب فى القاهرة فنجحت التجربة ، وجربته المراكز الاجتماعية فى الريف فنجح كذلك .

فأما فى القاهرة فقد قامت جماعة من كرائم السيدات والأوانس المتطوعات تحت اشراف وزارة الشؤون الاجتماعية بجمع التبرعات من البيوت الغنية فى حى المنيرة وجاردن سيتى لمساعدة الأسر الفقيرة فى حى السيدة .

وقد انطلقت هؤلاء المتطوعات الى البيوت خفافا ثم عدن الى قواعدهن مثقلات بالتبرعات من كل نوع : من الملابس والسكر والصابون والأرز والنقود ... فقمن بتوزيعها على خمسين أسرة ثبت للمركز فقرها المعدم ، ونالت كل منها ما يكفيها شهرا كاملا من كل الضروريات .

ثم جاء الصيف فلجأت الجماعة الى وسيلة أخرى وهى اقامة حفلات سينمائية بقاعة الاحتفالات الكبرى فى الجامعة نصف شهرية . وقد بلغ ايراد احدى هذه الحفلات نحو أربعين جنيها ، وهو مبلغ لا بأس به فى تحقيق الغرض المحدود وهو مساعدة الخمسين أسرة سالفة الذكر .

وأما فى الريف فقد ألفت المراكز الاجتماعية ، جماعات من الخيرين فى بعض القرى يتولون جمع الصدقات فى المواسم وتوزيعها سرا على العائلات الريفية الفقيرة التى يثبت احتياجها ويجمع هؤلاء الخيرون العارفون بكل أهل القرية على ضرورة مساعدتها. وقد نجحت التجربة ونال المحتاجون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف شيئا من المساعدة التى لا تؤذى كرامتهم .

فاذا قامت وزارة الشؤون الاجتماعية — بعد هاتين التجربتين — بتنفيذ مشروع المكاتب الاجتماعية فى الأقاليم ، فانها تقوم بمشروع مدروس برهنت التجربة على صلاحيته. واذا كانت هاتان التجربتان قد نجحتا فإن المكاتب المنظمة المخصصة لهذا العمل ستكون أكثر نجاحا .

ان المصرى — غالبا — لا تنقصه روح البر ، ولكنها لم تنضج فى نفسه بحيث يندفع الى البر بلا مطالب ، وهو يعطى الصدقة حيثما طلبت منه بلا نظام ولا تدقيق . فعمل هذه المكاتب انما هو تنظيم هذه العاطفة وايقاظها فى نفوس جميع القادرين ، وضمان ايصال المساعدات لمن يستحقونها بعد القيام بابحاث وتدوين معلومات تجعل هذا العمل مؤيدا بالنظام غير متروك للصادفات .

ولو كانت الميزانية قد سمحت بتعميم المراكز الاجتماعية لكان هذا أحد أعمالها ، ولكن المراكز التى أنشئت حتى اليوم من مال الدولة ومن مال الأفراد والجمعيات هى ثمانية مراكز فحسب ، ولا يعلم الا الله متى يتم تعميم هذا المشروع النافع . فلم يكن أمام الوزارة الا أن تنشئ المكاتب الاجتماعية للنهوض بهذا العمل مستقبلا ، طالما أنها لا تكلف الميزانية الا القليل ، ولا يقف فى وجهها المال الذى اعتدنا أن يقف فى سبيل كل مشروعات الفقراء .

(٣)

والجهل أحد الأمراض الاجتماعية التى تنشأ عن الفقر ثم تنشئ هى الفقر ، والإصلاح يجب أن يكون شاملا حتى يكفل له النجاح . وتلك عقيدة صاحب المعالى وزير الشؤون الاجتماعية ، عبر عنها أحد محررى جريدة البلاغ وهو يقول عن هذا الوزير :

"هو مؤمن بأن الإصلاح وحدة لا تتجزأ ، فلا خير أن تعالج مرضا يأكل جسد الفلاح من قرون ولده فيه سوء التغذية ، ثم تتركه جائعا ليرتد المرض إليه . ثم لا خير فى أن تبنى قرية نموذجية ثم لا تعلم الفلاح كيف يحافظ على نظافة مسكنه لتعود القرية بعد الشهور

أو السنين أكثر وساخة من القرى غير النموذجية، ثم لا خير فى القاء المحاضرات فى فوائد النظافة ما دام المواطن محروما من الذوق الذى يحمله على الإيمان بالجمال تبعا لحرمانه من الفنون، ثم لا خير فى إنشاء المستشفيات فى شعب مريض من غير أن تقرنها بنشر الوسائل التى تصح معها أجسام الشبيبة فتمشى الوقاية مع العلاج ... ولا معنى للطالبة بتحسين حال الفلاح وهو لما يزل يجهل فوائد التعاون . "

و إذا نظرنا إلى كل ذلك الذى يريد معاليه أن يسير فى خطوات متناسقة، وجدنا أن العلم ضرورى لكل خطوة فيه، فما يستطيع الفلاح الجاهل أن ينتفع بالمنشآت الصحية ولا بالقرية النموذجية ، وما يستطيع أن يحتفظ بنظافة منزله ولا أن يتذوق الفنون ليرقى ذوقه ، وما يستطيع أن يعرف مزايا التعاون الذى تقوم نهضة الريف على أساسه .

فتنفيذا لخطة التناسق بين جميع الخطوات اعتزمت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تحارب الأمية عن طريق المراكز الاجتماعية ، تقوم بدورها المساعد لعمل وزارة المعارف ومجالس المديريات ، عن طريق التطوع للخدمة العامة .

وقد قامت إدارة الفلاح بتجربة لهذا المشروع فى بلدة محلة زياد الملحقة بمركز المحلة الكبرى فنظمت مشروعا لمكافحة الأمية بإنشاء عدة فصول يقوم بالتدريس فيها متطوعون من المدرسين أبناء القرية وغيرهم من المتعلمين .

* * *

إننا فى الدور الحاضر من أدوار الإصلاح فى حاجة إلى الأخذ بكل تجربة والسير بكل مشروع مهما كانت دائرته محدودة ، فالمجتمع المصرى أشبه شىء بالفريق الذى يتعلق بكل عود وقد يصل بهذه الأعواد المتناثرة إلى شاطئ النجاة .

ومع ذلك فهذه نماذج من مشروعات الوزارة للإصلاح ووراءها الكثير من الموضوعات الشاملة والله الموفق لما فيه الفلاح .